



حاول نظام بشار الأسد أن يقدم نفسه للداخل والخارج منذ بداية الثورة على أنه حامي الأقليات. لكنه نسي أن لعبة حماية الأقليات ليست جديدة، بل استخدمها المستعمرون لأغراض حقيقة مرات ومرات قبله لترهير غزوهم لبلادنا أو تمرير بعض سياساتهم الإجرامية، بحجة حماية الأقليات كانوا يفعلون الأفعال، مع العلم أن آخر ما يهمهم كان حماية الأقليات التي استغلوها لأهداف استعمارية قذرة وممارسة سياستهم المعروفة «فرق تسد».

لقد أساء المستعمر للأقليات أكثر بكثير مما أفادها، وجعل بعضها يبدو أحياناً في أعين الأكثريّة على أنها مجرد طابور خامس.

طبعاً لا تختلف سياسات النظام السوري عن السياسة الاستعمارية، فهو استخدم الأقليات لنفس الأغراض السلطوية المفضوحة ودق الأسفين بين الأكثريّة والأقليات كي يحمي نظامه ويعيش على تناحرها.

لا بل إنه استغل حتى طائفته العلوية المسكينة من أجل بقائه في السلطة، فقد خسر العلويون حتى الآن، حسب إحصائياتهم هم، أكثر من مائة وخمسين ألف قتيل.

وكان النظام يبتزهم دائماً بأن الأكثريّة ستسحقهم إذا لم يشاركوا معه في الحرب ضد الثورة. وقد وقع العلويون كما غيرهم من الأقليات في حبال النظام الشيطانية.

والسؤال إذاً: إذا كان النظام يتاجر بأبناء الطائفة العلوية التي ينتمي إليها، ويقدمها قرباناً من أجل البقاء في السلطة، حتى لو أصبحت طائفة بلا رجال، فكيف يتوقع أبناء الأقليات الأخرى كالمسحيين والاسمعيليين والدروز أن يحميهم النظام؟

أليس الأقربون العلويون أولى بالمعروف؟ مع ذلك لم يقدم لهم النظام أي معروف، بل حارب بأشلائهم. وحتى المصابون منهم الآن يتسلون حبة الدواء، ولا يجدون ما يسد رمقهم. أما الدروز فقد عوّضهم عنزتين عن كل «شهيد». كيف تصدق الأقلية أن النظام يحميها إذا كان عدد المسيحيين في عهدي حافظ وبشار الأسد قد تناقص بنسبة مهولة، فلم يبق منهم حوالي 300 ألف مسيحي من أصل مليونين في سوريا؟ وقد هاجر معظمهم إلى الغرب أيام حافظ الأسد، حسب الباحث المسيحي جورج كدر. وقد لحق بهم عشرات الآلاف أثناء الثورة، ولم يستطع بشار الأسد أن يؤمن لهم أي حماية.

وحدث ولا حرج عن الدروز الذين هاجر منهم مئات الآلاف بسبب الفقر والظلم والطغيان، فعدد الدروز خارج سوريا أكبر بكثير من عددهم داخل سوريا.

هل كانوا ليهاجروا بمئات الآلاف يا ترى لو كان النظام يحميهم ويراعيهم كما يدعى ليل نهار؟ بالطبع لا. وتنقسم لعنة المتجارة بالأقلية من قبل النظام السوري إلى مرحلتين. المرحلة الأولى عندما كان يحرضهم ضد الأكثريّة الثائرة بحجة أن الأكثريّة ستسحقهم إذا لم يقاتل أبناء الأقلية إلى جانبه. وقد نجح مرحلياً، بحيث امتنعت الأقلية، على الأقل، عن الانضمام إلى الثورة، لا بل إن بعضها انضم إلى قطعان الشبيحة والنبيحة. لكن من المؤسف أن بعض الأقلية انطلت عليه اللعبة القدرة، ولم يكتشف الملعوب إلا متأخراً، أو بالأحرى حتى انتقل النظام إلى المرحلة الثانية من المتجارة بالأقلية، خاصة بعد أن فشل في تجنيد أبنائها في الجيش كما حصل في السويداء، حيث تخلف حوالي ثلاثة ألف شاب عن الجندية لرفضهم أن يكونوا قرابين في حرب الأسد المجنونة ضد الشعب السوري.

الآن وبعد أن انتهى بشار الأسد من المرحلة الأولى، وأصبح في وضع بائس عسكرياً بعد أن خذله بعض الأقلية، ولم يعد قادراً على المواجهة العسكرية، أو توفير أبسط أنواع الحماية للذين وقفوا معه من الأقلية، راح الآن يسلم مناطق الأقلية لقوى التطرف أولاً عقاباً لمن رفض الانضمام إلى جيشه، وثانياً بهدف لفت انتباه العالم إلى أن الأقلية باتت مهددة من داعش وميلياتها. وبهذه اللعبة، يكون النظام قد بدأ بالتجارة بالأقلية دولياً.

ها هو يقول للعالم الآن بعد أن أوصل جحافل المتطرفين إلى الموحدين الدروز في السويداء والسماعيليين في السلمية، ها هو يقول للعالم: انظروا: الأقلية في خطر، وعليكم أن تتفقوا معي ومعها. إنها المتجارة بالأقلية في أقذر صورها. لكن من الواضح أن لعبته انفضحت وانكشفت، ولم تعد تنطلي على الأقلية، ففي السويداء مثلاً بدأ الموحدون الدروز يقتربون أكثر فأكثر من جيرانهم في درعا بعد أن فشل النظام في دق الأسافين وإثارة الفتنة بين الطرفين. وقد انفضح أمر النظام أكثر عندما اكتشف دروز السويداء أن النظام قام بإفراغ المتاحف من الآثار ونقلها إلى مناطقه، ناهيك عن أنه أفرغ صوامع الحبوب، وسحب الأسلحة الثقيلة إلى مناطقه كي يترك الدروز لمصيرهم. لقد كان يريد من وراء ذلك المتجارة بمحنتهم في مواجهة قوى التطرف التي جاء بها إلى مشارف السويداء.

لكن هذه اللعبة القدرة انكشفت. وحسبه الآن أن يهرب من المنطقة الجنوبية بعد أن تهافت قلاعه فيها تباعاً، وبعد أن بات أهل السويداء يدركون أن النظام كان يتاجر بهم لأغراضه الخاصة. نرجو أن تكون الأقلية قد استوعبت اللعبة تماماً، وأنه من الأفضل لها أن تحالف مع الأكثريّة لا مع نظام طاغوت زائل مهما طال الزمن.

المصادر: